الفصل العاشر

المثقف... وتجسيد القدوة(*)

«نظرة نفسية»

(*) كتب هذا الفصل في أوائل عام ١٩٨٧.

يمثل المثقف فى كل أمة عقلها الواعى ورأسها المدبر وقائدها المسئول. ولذلك فإن الأمم عندما تصادفها الأزمات وتخنقها المشكلات وتجثم على صدورها الهموم تتطلع دوما الى مثقفيها تلتمس منهم الرأى، وتلقى على عاتقهم مسئولية الخلاص والإنقاذ.

وفى الفترة الأخيرة تعرضت صحفنا لبعض الندوات التى عقدت والآراء التى طرحت محاولة تحديد دور المثقف، وواجبه إزاء مجتمعه الذى تكاد تخنقه المشكلات، وتتهدد وحدته الأزمات والسلبيات. وفى ضوء هذا، فإننا نرى أن أهم واجبات المثقف فى وقتنا الراهن وأولاها بالتأكيد والتركيز هو أن يجسد بسلوكه الفعلى القدوة الصالحة لمواطنيه (دون الاكتفاء بزخرف القول الذى يجيده بحكم ثقافته)، وأن يكون مثلا يحتذى وقدوة مجسدة لكل الفضائل والأخلاق الحميدة التى حثت عليها القيم السامية والمثاليات الراقية، والتى بدونها تنهار الحضارات وتتخلف الأمم وتستعبد الشعوب، مثل قيم الحق والعدل والمساواة، وقيم الإخلاص فى العمل والولاء لتراب هذا الوطن وصالح شعبه، والسعى ماوسعنا الجهد لكل ما من شأنه رفعتها وتقدمها والدفاع عن مصالحها. وأيضًا مثل قيم البساطة فى المظهر ورفض (البهرجة) التى تؤدى الى سباق بين الناس فى الاستهلاك والتبذير... ومع أننا نطلب من كل فرد ان يلتزم هذه المثاليات الفاضلة، إلا أننا نوجبها على المثقف بصفة

خاصة، ذلك لأنه - علاوة على موقعه فى المجتمع وتأثيره القوى عليه - يعتبر اطارًا مرجعيا لبقية فئات الشعب تضرب به المثل وتسير على هداه وتقتدى بسلوكه، سواء أكان كل ذلك بوعى وقصد أم بشكل تلقائى لا واعى مثلما يقوم الجسد باتباع الرأس ويأتمر بأوامره. فنحن نقلد المثقفين فى طرائق معيشتهم ونقتدى بهم فى سلوكهم وأخلاقياتهم، حتى نصبح مثلهم فى المكانة الاجتماعية والسمعة الشخصية. ويمكن أن نجد تجسيدًا لهذه الحقيقة فى المثل المشهور (الناس على دين ملوكهم)، أى أن الناس تقلد وتحاكى وتسلك كما يفعل رؤساؤهم وقوادهم ومديروهم ومدبرو أمرهم. ولهذا يرتضى العامة ما يرتضيه المثقفون من أساليب السلوك، ويعتنقون مايعتنقه المثقفون من مثل وقيم وفضائل أو عكس ذلك من فساد وسوءات. فالفرد يحب عادة أن يتشبه بمن يعلوه ويفضله قوة أو حكمة أو مكانة. وهذه الحقيقة، سواء أطلقنا عليها بلغة علم النفس سيكلوجية المحاكاة (والتى تتم بشكل واع مقصود)، أو سيكلوجية التوحد (والذى يتم بشكل لا واع وتلقائى)، أو سيكلوجية القدوة والاقتداء، فإنها تظل صادقة عندما ننظر بعين فاحصة الى تأثير المثقف على بقية مواطنيه ومحاولاتهم التشبه به. وهكذا يكون صلاح الأمة فى صلاح مثقفيها بالدرجة الأولى.

وعلى هذا فنحن نريد مدرسا يجسد القدوة الصالحة لتلاميذه، فيخلص فى تعليم تلاميذه وتربيتهم على السلوك القويم، ويعطى القدوة من نفسه فلا يستغل تلاميذه وأولياء أمورهم فى عملية نهب مستمرة عن طريق اجبارهم على اللجوء الى (الدروس الخصوصية) حيث لا يعلم فى المدرسة وانما يعلم فى البيت، بل قد لا يعلم فى البيت أيضا وينقلب «الدرس الخاص» الى رشوة مقنعة للنجاح فى الامتحانات لاغير، «ولعن الله الراشى والمرتشى». ولاشك ان تلك ظاهرة منتشرة الآن، يئن من هولها أولياء الأمور، ويتندر بها التلاميذ، وتصيب كل ذى ضمير بالأرق. وفى ضوء هذا أيضا فنحن فى حاجة الى الأستاذ الجامعى الذى يضع ضميره الخلقى والمهنى فوق أى اعتبار، فيثبت

بذلك للمجتمع الذى ائتمنه على التعليم العالى فيه انه أهل لهذه الثقة فيخلص ماوسعته قدراته فى تعليم طلابه وتلاميذه والأخذ بيدهم وتنمية مداركهم واستعداداتهم حتى يستطيعوا خدمة تخصصاتهم العلمية، والإسهام فى حل مشكلات مجتمعهم الاقتصادية والاجتماعية بكل ما أوتوا من طاقة، وماحصلوه من علم، وماتربوا عليه من خلق ومثاليات. وينبغى على أستاذ الجامعة - فوق كل هذا - أن يعطى القدوة الصالحة من نفسه فلا يجامل طالباً إلا فى الحق، وأن تقوده نزاهته وموضوعيته إلى إعطاء كل ذى حق حقه من طلابه وتلاميذه فلا يظلم هذا، ولا يحابى ذاك لعلاقات شخصية، أو لنزوة نفسية، أو لخوف من هذا، أو لمجاملة لذاك. وهكذا لايبسر لذوى قربى أو صداقة أو علاقة خاصة أن يكون أول فرقته، أو أن يحصل على درجة علمية عليا لا يستحقها فيحتل بذلك منصبًا من حق غيره، أو مكانة فوق مايستحق فيفشل فيها، وبهذا يسىء إلى نفسه ويضر بمجتمعه.

وبالمثل فإننا نريد ناقدا أدبيا نزيها وموضوعيا يتناول العمل الأدبى بالنقد الموضوعى البناء سواء عرج على سلبياته، أو أبرز إيجابياته، فبغير هذا لا يزدهر الأدب، ولا تتطور فنونه. كما نريد صحفيا نزيها وموضوعيا لا يحجب الحقيقة أو يشوهها مجاملة لهذا، أو خوفًا من ذاك، فبغير هذا لن تتطور صحافتنا أو تكتسب مانرجوه لها من ثقة قرائها ومواطنينا... ونريد... ونريد... حتى نجسد لجيلنا الحالى وللاجيال القادمة قدوة صالحة يقتدون بها، ويسيرون على هداها.

وفى النهاية ينبغى علينا أن نعلم ان كلامنا ليس بمنأى عن الإصابة بإضرار الفساد الذى ينتشر فى المجتمع ومساوئه، مهما علت مستوياتنا الاقتصادية أو ارتفعت مكانتنا الاجتماعية والثقافية. فمهندس الصيانة الذى لا يؤدى واجباته كما ينبغى، فيسمح لأوتوبيس أو سيارة نقل بالعمل دون توافر وسائل الامان لها، قد ينجم عن تسيبه هذا ان تصيب تلك السيارة أحد المارة أو المركبات الأخرى بالطريق وقد يكون بينهم هو نفسه أو أحد أقربائه

أو زملائه. فالحادثة لا تنتقى فئة دون غيرها من المجتمع. وبالمثل يمكن أن نقول عن المهندس أو المقاول الذى يجرى وراء الكسب الفاحش دون مراعاة لأصول المبانى وشروط الأمان... ذاك أن المجتمع وحدة واحدة متكاملة، إن فسد جزء منه تداعت له سائر الأجزاء بالتأثر والتضرر.

ولهذا فإن القدوة الصالحة تجب حمايتها وتشجيعها، ولا يجوز التكتل لضرب من يجسدها كما يحلو لبعض مروجى الفساد ومدعميه، وأحيانًا للأسف ينجحون. وكأنهم يريدون أن يقولوا: «إذا كنت تؤثر السلامة والعافية، فعليك بترك هذه المثاليات (الفارغة)» وهم يزينون سوء أفعالهم ويبررون إفسادهم فى الأرض بأن يقولوا: «الدنيا كلها هكذا أفأنت ستصلح الكون؟» لكن - والحق يقال - إن هناك الكثيرين الذين يجسدون للناس أمثلة جيدة للقدوة الطيبة. وهؤلاء هم الذين يمثلون أملنا فى إصلاح المجتمع وصلاحه، ويملئوننا بالتفاؤل والثقة فى مستقبل أيامه.